

تجليات الإبداع الفني والأدبي في بجاية الحمادية

Manifestations of artistic and literary creativity in Bejaia El Hammadia

د. نجاه بلعباس¹

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

nadjetdz13@yahoo.com

تاريخ الوصول 2022/12/23 القبول 2023/05/03 النشر على الخط 2023/06/05

Received 23/12/2022 Accepted 03/05/2023 Published online 05/06/2023

ملخص:

تتجلى أهمية هذا البحث في الكشف عن مآثر أحد أهم الحواضر العلمية والثقافية بالمغرب الأوسط، ألا وهي مدينة بجاية العريقة بتاريخها وأمجادها السالفة، والأهم من ذلك إعطاء صورة واضحة عن الحياة الفنية والأدبية بها إبان عهد بني حماد وما حظيت به من طابع وأسلوب متميزين؛ ومدى تفاعلها مع مختلف الجوانب الثقافية الأخرى، ما أهلها لأن تكون أعظم شاهد تاريخي وفني يُشيد برفي الحضارة الإسلامية ببلاد المغرب العربي ككل، ومن هنا نطرح الإشكالية الآتية: فيم تمثلت الإبداعات الفنية والأدبية في بجاية بني حماد، وفيم تجلّى طابعها المميز؟

لنتوصل إلى استخلاص عدّة نتائج من أهمها الاطلاع على ظروف تأسيس حاضرة بجاية العاصمة الثانية للدولة الحمادية ومراحل تطورها وازدهارها، وكذا عرض أهم ما تحقّق على يد الحماديين في مجال العمران والفنون المتعدّدة، فضلا عن إسهامهم في دعم النشاط العلمي والأدبي المطبوع بطابعهم الخاص والمتميز عبر نتاجاتهم المتنوعة.

الكلمات المفتاحية: بجاية، بنو حماد، الإبداع، الفنون، الآداب.

Abstract:

The aim of this research is revealing the exploits of one of the most important scientific and cultural cities in the Middle Maghreb "Bejaia" with its past history and glories , and what qualified it to be the greatest historical and artistic witness praising the progress of Islamic civilization in the countries of the Maghreb as a whole,by finding Whereas artistic and literary creations were represented in Bejaia Bani Hammad, and what was their distinctive character?

In order to reach several conclusions, the establishment of the metropolis of Bejaia, and the stages of its development and prosperity, as well as presenting the most important achievements of the Hammadi people as well as their contribution to supporting scientific and literary activities.

Keywords: Bejaia, Banu Hammad, creativity, arts, literature.

1. مقدمة:

عرف العالم العربي والإسلامي نبوغ عدّة مراكز ثقافيّة أسهمت بدرجات متفاوتة في تنمية الحضارة وازدهارها في شتّى جوانبها، والمغرب الإسلامي باعتباره جزءاً لا يتجزأ من هذا العالم فهو الآخر عرف انتعاشاً وتنوّعاً حضارياً؛ بفضل مراكزه المنتشرة عبر ربوعه كالقيروان، وتلمسان، وفاس وقرطبة، وكذا بفضل تلك العلاقات التي كانت سائدة بينها، وما أفضت إليه من تأثير في ميادين الحياة المتعدّدة، إضافة إلى ذلك التبادل الفكري والعلمي والفني والثقافي المتميّز، فتعدّ بجاية واحدة من بين أهمّ هذه المراكز خاصّة إبان العهد الحمّادي، حيث تحوّلت إلى عاصمة ذات شهرة ذاع صيتها في كلّ حذب وصوب.

اشتهرت بجاية الحمّادية -بالرغم من قصر عمر الدولة- بحضارتها الرائدة في شتّى مجالات الحياة فقد صارت عاصمة تضاهي عواصم العلم والثقافة المعروفة آنذاك، بل تنافسها في ضروب النشاط الفكري والحضاري بفضل ما أولاه لها شعبها من حكام ورعية من اهتمام بالغ بالتشييد والتعمير، فاستبحرت أرجاؤها بالعمران وتنوّعت في أصناف الفنون والصناعات الداعمة لمختلف ألوان التمدّن والتحضّر، فضلاً عن تحقيق تلك المقاصد النبيلة الداعية للتهوؤ بالعلم والمعرفة وجعل بجاية قبلة علمية وثقافية يؤمّها العلماء والأدباء وطلّاب العلم من كلّ مكان، ومن هنا نطرح الإشكالية الآتية: فيم تجلّت الإبداعات الفنيّة والأدبيّة في بجاية بني حمّاد؟ وتحت هذه الإشكالية تندرج مجموعة من التّساؤلات الفرعية منها: كيف تأسّست حاضرة بجاية الحمّادية؟ وما مقدار إسهامها الفني والأدبي؟

وقد كان انطلاقنا من فرضيّات أنّ بني حمّاد شأنهم شأن سائر حكام المغرب الأوسط قد أسّسوا دولة مترامية الأطراف ببجاية وتنافسوا في تحويلها إلى حاضرة علميّة مزدهرة عمرانياً وفنياً وثقافياً، فقصدوها المعمارون وأرباب الصناعات من كلّ حذب لاسيما من الأندلس، وأمّها العلماء والأدباء وطلّبة المعرفة من داخل المغرب الأوسط وخارجه، فأسهّم كلّ هؤلاء في وضع بصماتهم الجليلة بالحاضرة وذلك بالفعل ما تأنّى ولمسناه من خلال تتبّع الإبداعات الفنيّة والأدبية عبر النصوص.

ولعلّ ما نبتغي الوصول إليه من أهداف يتمحور في محاولتنا تتبّع ظروف تأسيس حاضرة بجاية من لدن الحمّاديين، وعرض مراحل تطوّرها، وكيف أسهم كلّ حاكم من حكامها في تشييد مبانيها وتمدينها والرّفّع من مستوى نشاطها الفكري والأدبي، لتضاهي حواضر المغرب الإسلامي قاطبة، ثمّ استخلاص أهمّ نتائج هذا النشاط عبر شتّى المصنّفات التي أتحفتنا بمآثر بجاية. كما اعتمدنا في بحثنا على منهجيّة عامّة تمثّلت في تقسيمه إلى ثلاثة عناصر أساسيّة: تمحور أولها حول تتبّع حيثيات تأسيس مدينة بجاية وتطوّرها إبان عهد بني حمّاد، معرّجين في العنصر الثّاني إلى عرض أهمّ الإبداعات العمرانية والفنيّة الحمّادية بالحاضرة، منصرفين في العنصر الأخير إلى التطرّق إلى أبرز الإبداعات الأدبيّة لأدباء بجاية الحمّادية.

2. تأسيس مدينة بجاية الحمّادية وتطوّرها:

تعدّ بجاية من أهمّ المدن المطلّة على البحر التي تُكوّن الدّولة الجزائرية، فهي تتوسّط كلاً من الجزائر وقسنطينة، فتحلّ موقعا استراتيجيا ممتازا منذ القدم دخلت تحت لواء الحكم الإسلامي بتأسيس الدّولة الحمّادية وهي ثاني دولة مسلمة في المغرب الأوسط بعد الدّولة الرّستمية، وقد أسّسها الأمير حمّاد بن بلقين الذي اختطّ مدينة القلعة في البداية، ونظّم عمرانها وهو ما يؤكّده ابن

خلدون بقوله: « فاستبحرث في العمارة واتسعت بالتمدن، ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع »¹ وهنا ندرك أنّ أول عواصم الدولة الحمادية تمثلت في القلعة، فقد استطاع الأمير حمّاد تشييد ملك عظيم لاسيما القصور والمساجد فنالت شهرة ذائعة الصيت ليواصل أبناء حمّاد سياسة التعمير وتوطيد ركائز الحكم.

ولكن سرعان ما اتسع سلطان القلعة وكان لزاما على حكامها الانتقال إلى عاصمة جديدة للدولة، فأنشأ السلطان الحمادي الناصر بن علّاس العاصمة الجديدة بجاية وأسمّاها الناصرية، لكن لم يُقدّر لهذا الاسم أن يحظى باستعمال الناس حيث فضلوا إطلاق الاسم القديم بجاية «كما أنشأ بها دارين لصناعة المركب والسفن وأساطيل القتال وأقام بها المباني والصناعات والفنون، ما جعلها قبلة لطلاب الحضارة ورواد المدينة (بجاية) من أهل الشرق والغرب»² حيث ساعد الانتقال إلى بجاية على توطيد أسباب الاستقرار السياسي للدولة الحمادية، فتفرّغ الناصر وسائر الحكّام للبناء الحضاري والارتقاء بها إلى مصافي العواصم الأخرى، وقد مدح الشاعر ابن فكاك القيرواني الخليفة الناصر بقصيدة قال فيها:³

قَالَتْ سَعَادٌ وَقَدْ زُمْتُ رَكَائِنَا مَهْلًا عَلَيَّكَ فَأَنْتَ الرَّائِحُ الْعَادِي
فَقُلْتُ تَاللّٰهِ لَا أَنْفَكُ ذَا سَفَرٍ بَحْرِي فِي الْفُلِّكُ أَوْ يَخْدُو بِي الْحَادِي
حَتَّى أَقْبَلَ تُرْبَ الْعِزِّ مُنْتَصِرًا بِالنَّاصِرِ بْنِ عَلَّاسِ بْنِ حَمَادٍ

فابن الفكاك الشاعر نجده في هذه الأبيات انبرى يمدح الخليفة الناصر ويشيد بمفاخره وذلك عندما انتقل إلى عاصمة الحماديين بجاية هو وثلة من العلماء والشعراء بعد نكبة القيروان.

وبعد وفاة الناصر تسلّم ابنه المنصور زمام الحكم فأصبحت المدينة من أبرز الحواضر المغربية يقصدها العلماء على اختلاف مشاربهم، فواصل المنصور سياسة والده في البناء الحضاري فكان «مولعًا بالبناء وتشديد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين؛ فبنى في القلعة قصر الملك، والمنار، والكوكب، وقصر السلام، وفي بجاية قصر اللؤلؤة، وقصر أميمون»⁴ حيث كان حبّ تعمير الدول والتنافس فيه من أبرز الشيم التي يورثها عظماء الحكّام لأبنائهم، فما كان من المنصور إلّا أن شيّد الكثير من المباني ببجاية ودفعها للتمدن والتحضّر بالرغم من انشغاله بالجانب السياسي، لاسيما الدفاع عن الدولة ضدّ الطامعين فيها.

وبوفاة المنصور خلفه ابنه باديس؛ إلّا أنّه لم يتّصف بالصفّات المطلوبة في الحاكم ولذلك لم تشهد فترة حكمه ببجاية أيّ إضافة قيّمة سياسية أو ثقافية، وبعد أقلّ من ستّة أشهر توفي تاركا الحكم لأخيه العزيز بن المنصور الذي كان على عكس سيرة أخيه عارفا بسبل تسيير الممالك، فمن دهائه أنّه تزوّج من بيوتات خصمائه زناته، ومن بيت الملك بالمهدية⁵ فاستطاع أن يقلب العداوة إلى مصاهرة وبلغت الدولة في خلافته مكانة مرموقة، فتولّى الحكم بعد وفاته ابنه يحيى بن العزيز؛ وكان هذا الأخير أطول

¹ - عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، شركة دار الأمة للنشر، الجزائر، دط، 2013م، ص 278.

² - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1980م، ج1، ص 281.

³ - لسان الدين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكّثاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، دار الكتاب للنشر، الدار البيضاء، دط، 1964م، ص 96.

⁴ - رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط2، 1981م، ص 212.

⁵ - ينظر عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 287.

الحكام مدة وآخرهم؛ إلا أن لهوه وبذخه كان سببا رئيسا في زوال ملكه، إضافة إلى كثرة المناوشات والصراعات التي كانت تتعرض لها دولته مما اضطره للاستسلام للموحدين، وإقباله على مبايعة حاكمهم وبذلك تنتهي فترة حكم الدولة الحمادية ببجاية. وبتسلم الموحدين أمور الحكم ببجاية تبدأ فترة جديدة من الازدهار الحضاري، حيث عمد عبد المؤمن بن علي إلى ضم بجاية وكذلك القلعة إلى الدولة الموحدية سنة 557هـ، وتولى حكمها مجموعة من الولاة نذكر منهم: عبد الله بن عبد المؤمن، وأبو زكريا يحيى بن عبد المؤمن، وأبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي، فعرفت بجاية الاستقرار في هذه العهود «وشهدت المدينة خلال عهد الموحدين تطورا هائلا في الحضارة وال عمران ولقد دام حكمهم زهاء قرن من الزمن، ثم تلاشت دولتهم بسبب الانقسام الذي جرى فيها وتكالب كل من بني مرين وبني زيان»¹ فسرعان ما استفحل الصراع على السلطة بين أفراد البيت الموحيدي، وهذا ما سهّل المهمة على الحفصيين، حيث استولى أبو زكريا الحفصي على بجاية سنة 629هـ وعيّن ابنه يحيى الأول عليها ثم حكمها أبو عبد الله محمد الملقب بالمستنصر، وتلاه أبو هلال عباد بن سعيد الهنتاتي والعديد من الحكام الحفصيين الذين كانوا يحاولون الحفاظ على مناصبهم في ضوء تلك الصراعات التي كانت قائمة آنذاك، وهكذا ظلت بجاية تعاني من التشتت ما جعلها عرضة للاحتلال الإسباني ثم الفرنسي.

وبالرغم من قصر العمر الزمني الذي سادت فيه الدولة الحمادية بحضارتها المشعة على كل من القلعة وبجاية، فإنها قد نالت نصيباً معتبراً من الحياة الهادئة والمترفة منذ أيام الناصر بن علناس بفضل أبنائها، فازدهر إبداعهم الفني والمعماري والأدبي، نتيجة لازدهار المجتمع ورخائه وخلوه من المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت سبباً في سقوط عدد كبير من الدول، فنجد أن الحماديين قد أقاموا دولتهم على أساس البناء الداخلي؛ ومن ثمة توطيد العلاقات الخارجية، مما يفتح المجال للتأثر والتأثير مع مختلف الأقطار القريبة والبعيدة، فكان هذا أبرز عامل في الازدهار الفني الذي تمتعت به الدولة في أكثر من نصف عمرها.

3. الإبداعات الفنية ببجاية الحمادية:

إذا كان الفنّ فعالية إبداعية تتميز بالرقى وتدلّ على مستوى رقي الإنسان ووسائله في مجتمع معين وضمن حدود زمانية ومكانية، فإنه أيضا لغة تعبيرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بروح الأمة؛ وبالتالي فإنّ الفنّ الذي تفرزه عبر التاريخ والأجيال هو الحضارة في حدّ ذاتها؛ وبما أنّ الحضارة الإسلامية تركز على الدين وهو الإسلام فإنه ذروة من ذروات الثقافة والحضارة العربية، والفنّ التابع عنها يضمّ مظاهر العمارة والفنّ التي كان الإسلام سببا لها، فوجد لخدمة الحقّ والفضيلة والعدالة وفي سبيل الخير والجمال، والفنّ الإسلامي بعد ذلك «لقاء بين إبداع الموهبة ونتاج العبقرية، وبين دقة الصنعة ومهارة التنفيذ وحسن الإخراج، إنه اجتماع بين الذكاء المتقد وبين الخبرة والإتقان وبهذا يصل الفنّ إلى ذروة الجمال...»² فالاجتماع الحمادي كان منفتحاً على غيره يأتيه الباحثون والعلماء والأدباء من كلّ حذب وصوب خاصّة من المشرق العربي والأندلس، فاستطاعت بذلك الفنون أن تأخذ وتعطي وأن تتبادل التأثير والتأثير.

¹ - عبد الرحمن بن خلدون، ضبط خليل شحاتة، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 2006م، ج6، ص330.

² - صالح أحمد الشامي، الفنّ الإسلامي التزام وابتداع، دار القلم للنشر، دمشق، ط1، 1990م، ص41.

فعملية التفاعل والتلاقح بين مختلف الحواضر لم تمنع الفنون الحمادية من أن تحتفظ ببعض الجوانب التي تمنحها الخصوصية والاستقلال عن مثيلاتها، وتتمكّن من أخذ مركز الريادة والصدارة في كثير من نواحي الإبداع الفني وبخاصة فن الهندسة المعمارية والزخرفية؛ وهذا ما يؤكده الدكتور عبد الحليم عويس على لسان الدكتور سعد شلبي حين قال: «إنّ شهرة بني حماد قد ذاعت حتّى طارت إلى الأندلس، ولقد شاع إيواءهم للمغلبيين على أمرهم والمطرودين»¹ ودليل ذلك أنّ المنصور الحمادي تأثر بملوك الأندلس فحوّل بلاطه إلى بلاط أندلسي وكانت عيشته مترفة.

وبالمثل فإنّ الحضارة في الأندلس هي الأخرى تأثرت بإفريقية والمغرب، واقتبست منهم أصناف الآداب والفنون وحتّى بعض الطرائق في الغناء العربي «إلى جانب أنّ ثمة طرائق من التعبير الزخرفي قد ظهرت في القلعة قبل ظهورها في حوض البحر الأبيض المتوسط بزمان طويل»² كما لا ننسى أنّ بجاية قد ورثت جزءاً مهماً من حضارة تونس حينما أصبحت العاصمة الحضارية للمغربين الأوسط والأدنى.

فإذا تحدّثنا عن حركة البناء والتعمير التي عرفها الحماديون، فنجد أنّها خير شاهد على مدى تقدّمهم في الهندسة وخاصة الهندسة المعمارية، فأضحت عاصمتهم الأولى القلعة التي شيدها سكان البلاد في طليعة التقدّم التقني والفني، وعلى نهجها سارت بجاية العاصمة الثانية للدولة، فقد كان يتم اختيار الموقع الصالح للبناء ومتوفر المياه وواسع الإشراف قصد توفير عنصر الحماية؛ كما خصّصوا أماكن للأسواق والأماكن الحضرية والفنادق، وبما أنّ الإسلام حضّ على احترام أهل الذمّة وأصحاب الديانات الأخرى، فقد خطّ الحماديون أحياء خاصة للجاليات الأجنبية والمسيحية واليهودية.

أسس بنو حماد مباني عدّة أهمّها المباني العسكرية في كلّ من القلعة وبجاية، فهذه الأخيرة ضمّت عدداً من الأسوار والأبراج والمنارات أبرزها سور بجاية الذي لا تزال آثاره قائمة إلى أيامنا، وهو ينحدر من الناحية الشمالية للمدينة المسماة حالياً ببرج بوليلة إلى الجنوب، ثمّ يتّبع شطّ البحر نحو الشمال يتراوح عرضه بما يقارب مترين أو ثلاثة أمتار وارتفاعه بين أربعة وستّة أمتار، وفي أعلاه ممرّ للحراس تكلّله شرفات، وكان هذا السور مبنياً بالحجر مكّلساً بالجير تتخلّله بروج مستطيلة القواعد، فضلاً عن برج شوف الرياض الذي يحرس ثلاثة أبواب تعلوه آلة مزوّدة بمرايا تستعمل للمراسلة مع الأبراج الأخرى وفي الليل يستعملون التيران لذلك أطلق عليه اسم المنارة، كما لا ننسى ما تبقى من سور القلعة³ فلضلوع حكّام بني حماد بالحروب وسياستها فإنّهم عمدوا إلى تشييد شتّى المباني ذات الطابع العسكري بتقنيات مضبوطة، تضاعف لهم الحماية وتحتوي في الآن ذاته على مساحة جمالية يتفردون بها دون غيرهم، إضافة إلى مباني أخرى كباب الأقواس وبرج المنار وغيرها.

شيّد الحماديون أبنية أخرى ذات طابع ديني يؤدّي فيها العامل الروحي دوراً بارزاً من شأنه ترسيخ مبادئ التوحيد وتنظيم العلاقات بين الخالق والمخلوق، فجاء لزما إنشاء المسجد الجامع، فالمسجد يلتقي فيه المؤمنون ويطعمون الصلّاة خمس مرّات في اليوم، وفيه يجتمعون يوم الجمعة لإقامة صلاة الجمعة والاستماع إلى الخطبة، ومن مساجد بجاية نجد المسجد الأعظم الذي بناه

¹ - عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991م، ص272.

² - رشيد بورويبة، بجاية (كتالوج) سلسلة الفن والثقافة، نشر وزارة الأخبار الجزائرية، مدريد، 1970م، ص51.

³ - ينظر رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، دط، 1977م، ص202.

الخليفة المنصور وطوله حوالي 220 ذراعاً وعرضه 150 ذراعاً تعلوه واجهة مزينة بسبعة عشر عقداً وباب كبير على يمينه ويساره ألواح رخامية مزينة بكتابات رائعة الشكل ويحوي أزيد من عشرين باباً، بالإضافة إلى قاعة مخصصة للنساء وداخل المسجد نجد اثنين وثلاثين سارية من الرخام وقبة عظيمة، أما عن الأرضية فقد كُسيَت بالرخام وتمت تغطية الجدران بالزليج عليه كتابات وهي آيات قرآنية؛ ومئذنته يبلغ طولها ستين ذراعاً بقاعدة مربعة تبلغ عشرين ذراعاً¹ وهذا المسجد قد بلغ شأنًا كبيراً على عهد المنصور، بحيث ابتكرت فيه عدّة عناصر جديدة ومتميّزة بأيدي معماريين خبراء، بالإضافة إلى قصر اللؤلؤة الذي تمّ تحويله إلى مسجد مزين بنقوش رائعة الجمال.

أما المباني المدنية فهي الأخرى متنوعة تبعاً للحضارة السائدة ودرجة رقيّها، أبرزها القصور التي بنى الحماديون الكثير منها في بجاية والقلعة كقصر اللؤلؤة وقصر أميمون وقصر المنار وقصر البحر وقصر الكوكب وقصر السلام، فهذه القصور عدّة ميزات وكل واحد منها يختلف عن الآخر من حيث المساحة والشكل وعدد المباني التي يضمّها، وكانت تُخصّص في معظمها للعلماء وهي تضمّ الطاقات المشرفة على البحر بشبابيكها الحديدية والأبواب المزخرفة المنحنية والمجالس المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها والتي قد نُقشت وأنزلت بالذهب واللآلئ وقد كتبت فيها الكتابات المحسّنة...² وفي عرش المنصور بُني قصر يُعرف بقصر الكوكب وكان من أجمل قصور العالم، يمتاز بالعلو ومزين بتصاوير مرسومة بحجر الرّنج ونبات اسمه الرّجق حيث يسحقان معاً ويزيّتون الجدران بما فيصير القصر يلمع مثل أشعة الشمس، فيصف الشاعر ابن حمديس الصقلي لمعان القصر وارتفاعه قائلاً:³

وَكَأَنَّهُ مِنْ دُرَّةٍ شَفَافَةٍ تُعْشِي الْعُيُونَ بِشِدَّةِ اللَّمَعَانِ
لَا يَرْتَقِي الرَّاقِي إِلَى شُرُفَاتِهِ إِلَّا بِمِعْرَاجٍ مِنَ اللَّحْظَانِ
عَرَّجَ بِالنَّاصِرِيَّةِ كَيْ تَرَى شَرَفَ الْمَكَانِ وَقُدْرَةَ الْإِمْكَانِ

فجمال القصر وروعة تصميم أركانه وجوده تزيينها بما يرافقها من بساتين غناء قد سحرت عيون الشعراء، فجادت قرائحهم بأبيات رائعة تصف ما شاهدوه وتثير الفضول في القارئ للتعرف على تاريخ وحضارة الدولة الحمادية وسائر عمائرها وفنونها. كما لا ننسى قصر المنار الذي بُني في قلعة بني حماد ويُسمى أيضاً قصر الإشارات وبرج المنار، يُرجّح أنّ الناصر قد بدأ في إنشائه ثم أكمله المنصور وهو من أبرز معالم الإبداع الهندسي الحمادي في القلعة؛ وأشهر ما بقي من آثارهم في عاصمتهم الأولى وكانت حيطان هذا البرج مثلها مثل حيطان مئذنته مصنوعة إلى الداخل من صخور كثيفة (حجارة غير منحوتة متشابكة)، وأما من الخارج فحجارة منحوتة على غرار قصور ما بين النهرين تحفظ في الوقت نفسه أجران الحجارة الداخلية من الحت والتآكل بعامل الزمن⁴ ومن الثابت أيضاً أنّ القصر كان مغطى بقبة لم تزل آثارها ظاهرة.

¹ - ينظر رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ص 208.

² - ينظر المرجع نفسه، ص 245.

³ - المرجع نفسه، ص 247.

⁴ - ينظر رشيد بورويبة، بجاية (كتالوج) سلسلة الفن والثقافة، ص 50.

وهو يشتمل أيضا على عدة مبانٍ متلاصقة بعضها مع بعض، منها جنوبية ومنها شمالية، لكل منها ميزات نجملها في أن: القسم الجنوبي يشتمل على واجهة محصنة بدعائم بشكل مربع ومزينة بعدد من المشكوات المكللة بالأقواس، إضافة إلى صحن مربع أيضا وأروقة تقود إلى القاعات المفروشة بالرخام، أما جدرانها فمزينة تعلوها كتابة وزخارف نباتية، فالزخرفة على الجص نجد ثلاثة منها إحداها تمثل ساقا بشكل معين، وثمرة على شكل جوز الصنوبر تذكّرنا بجوز الصنوبر الموجود بمنبر الجامع الكبير بالجزائر العاصمة الذي يرجع تشييده إلى عهد المرابطين، والقطعة الثانية تشتمل على ساق مقوسة وزهرة ثلاثية الفصوص ومنقطة، أما الثالثة فلها طابع أصيل نجد فيها بجانب الساق والزهرة الثلاثية الفصوص زهرة رباعية الفصوص بفص على شكل علامة الاستفهام، وزهرة ذات ست تويجات، ورسم بشكل الفطر وإفريز من الأقواس المعلاة¹ وهنا تبرز فخامة الزخرفة الإسلامية الأصيلة بأشكالها الفريدة المتميزة، تؤازرها في ذلك الخطوط المطلية بالأحمر والأخضر والأزرق وكذا زخارف الأقنثة متعددة الأوراق والفصوص بأشكال تتراوح بين الدائري والحلزوني، أما القسم الشمالي فأبنيته متلاصقة مع القسم الجنوبي وبها عدد من الغرف والقاعات وكذا صحن كبير، وبهو فسيح وسرداب تُخزن فيه الأسلحة، والمتأمل في تاريخ الفن الإسلامي وجماليته سيدرك التشابه بين قاعات قصر المنار وقصر القبة والعزير العربيين في صقلية، لذلك يمكن الجزم بأن يكون مهندسو هذين القصرين قد تأثروا في عملهم بعمارة قصر المنار وهذا ما يدل على قوة بني حماد واهتمامهم البالغ بالفن المعماري.

اهتمّ الحماديون بفن الهندسة المعمارية الزخرفية اهتماما كبيرا، فنجد الزخرفة؛ الخط والحفر والرسم والنحت التي تطوّرت بتطور الحضارة الحمادية، فعن الفخار فقد بلغ شأواً عظيماً حينما عثر الأثريون على قطع نادرة من الخزف والفخار ذو البريق المعدني والصيني الأزرق والأبيض المزدان بالنجوم بشكل ثمانية أضلاع، وقد كانت موجودة في قصور قلعة بني حماد قبل أي مكان آخر كقصر الحمراء وقصور الأندلس؛ وكان البجاويون يستعملون الفخار خصوصا لصنع الأواني «ومن هذه الأواني نذكر صحن كبيرة مسطحة القعر وصحافا وجرارا مزخرفة بزخارف مسحوبة أو مرسومة بالريشة أو مطبوعة»² وعن الزخارف فهي هندسية، ونباتية، وكتابية، وحيوانية ترافقها أشكال هندسية كالخط المنكسر والخط الحلزوني والمربع والمعين والمضلع والشماني والنجمة والدائرة والأقواس، وأشكال نباتية تحتوي على الفرع الملتف والورقة والسعيقة والزهورات ذات تيجان.

كما وجد علماء الآثار بعد تنقيباتهم أيضا شواهد قبور حمادية بأشكال متباينة ومكتوبة بالخط الكوفي، بالإضافة إلى ذلك «نجد نمطا من الخط الحمادي يدلنا على أنّ ذلك الخط كان قريبا من الخط الكوفي المشتبك المشهور في العصر الحمادي كلّ»³ وهناك خطوط أخرى قد اكتشفت وبيّنت لنا وجود تطوّر بين كتابات القلعة وكتابات بجاية آنذاك، وهذا ما يؤكّد وجود تطوّر حضاري في الدولة الحمادية.

وقد عثر الأثريون أيضا على عدة أحواض أبرزها صنّع من الرخام الأشهب، ومنها من أدرجت فيه تماثيل لأربعة أسود ترمي الماء من أفواهها؛ كما تم العثور على قطع من الحلي والنقود والقطع الزجاجية بزخارف لم يُشهد لها نظير، وحظيت الموسيقى والغناء

¹ - ينظر رشيد بورويّة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ص 262.

² - رشيد بورويّة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ص 274.

³ - عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ص 274.

لدى الحمّادين باهتمام كبير وكانت متأثرة بالموسيقى الإفريقية الشرقية والأندلسية، بآلات مثل النّاي والعود والدّف، إضافة إلى اتّخاذ المغنّيين والمغنّيات والرّاقصات، وهذا كلّهُ أبرز فنّ الزخرفة الحمّادي وغيره من الفنون المتعلّقة به فنّ متقدّم ذو ملامح إسلامية عربية وبربرية¹ ما يؤكّد لنا حتما أنّ الإبداعات المعمارية والفنيّة ببجاية لم تكن نتيجة التأثير بالغير وإنّما نتيجة عبقرية الحمّاديين وسعيهم لاكتشاف الجديد وتطبيقه على أرض الواقع.

4. الإبداعات الأدبية ببجاية الحمّادية:

بعدما ورثت بجاية قلعة بني حمّاد في جوانبها السياسية والاجتماعية فإنّها لم تغفل عن الاهتمام بل والتركيز على الجانب العلمي والثقافي من خلال مواصلة الحُكّام سياسة البناء الحضاري والعلمي، فقد جلبوا الكثير من عباقرّة تونس والأندلس، والشّام والحجاز، والعراق وصقلية، والعجم، فتقاطروا على القلعة وبجاية والعواصم العلميّة الأخرى، واستفاد الشّعب من علومهم وثقافتهم اللامعة، فبلغ من إقبال النّاس على العلم أنّه كان يجتمع مع الأستاذ الواحد، ما يزيد عن مائة طالب... فنبغ في عهد بني حمّاد علماء مبرزون وظهر مؤلّفون متعمّقون في مختلف العلوم² فشهدت بذلك بجاية نهضة عمرانية وفكرية عظيمة لاسيما في العهد الحمّادي، وصارت تنافس مثيلاتها في المشرق والمغرب والأندلس وزاد استقبالها للعلماء والاحتفاء بهم للاستفادة من علومهم ثمّ الإغداق عليهم بالهدايا القيّمة.

تحوّلت بجاية إلى حاضرة علمية مهمّة بالدّولة يؤمّها العلماء والأدباء والشّعراء وكذا طلبة العلم من كلّ مكان من المغرب الأوسط وخارجه؛ متنافسين في التشبّع بسائر الثقافات والعلوم العقلية والدينية والأدبية عبر المجالس العلمية الخاصّة بالحكّام والعامّة أيضا، فضلا عن تلك المناظرات وحلقات العلم التي تلقّى فيها الدروس والمعارف بكلّ أمانة، فهي هو ذا الخليفة المنصور وقد أسهم في ميدان العلوم والآداب حيث يصفه ابن الخطيب قائلا: «كان على أمره، حميد الخصال، ضابطا لأموره، يكتب ويشعر ويذهب في أموره مذهب أبي جعفر المنصور من رقع الثّياب، والتّحفظ على القليل من الأشياء»³ حيث كان أديبا كاتباً يحفظ الشّعر ويرويّه ذو اطلاع واسع على سائر العلوم وعلى عادة أسلافه كان يقرب إليه الأدباء وينصّبهم كتّابا لدواوين الدّولة.

كما لا ننسى تلك الإسهامات القيّمة للخليفة العزيز بن المنصور وقد مهّد السّبيل للّاجئين من العلماء والأدباء والشّعراء الوافدين من القلعة بعد خرابها، وهيّا مجلسه للعلماء حتّى يتناظروا فيه، هذا فضلا عن مشاركته الفريدة في هذه المناظرات ومجالساته القيّمة للأدباء⁴ وهذا خير مثال على تشجيع أولي الأمر للعلم والعلماء ومشاركتهم الفعّالة إلى جانب الرعيّة في سائر صنوف العلوم والآداب فبلغت بجاية في عهده مكانة لم تبلغها من قبل.

¹ - ينظر رشيد بورويبة، بجاية (كتالوج) سلسلة الفن والثقافة، ص(22-35-47-51).

² - ينظر سليمان داود بن يوسف، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر، دط، 1993م، ص75.

³ - لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثّالث من كتاب أعمال الأعلام، ص 97.

⁴ - ينظر إسماعيل العربي، دولة بني حمّاد، ملوك القلعة وبجاية، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1980م، ص 206.

وقد انتعشت سوق الأدب بحاضرة بجاية وبرع فيها ثلّة من الأدباء والشعراء، تراوحت بين الفنون الشعريّة التي تعدّدت أغراضها وتنوّعت، متمثلة في الشعر الديني والابتهاال والوصف والشكوى والرتاء والمدح والفخر والغزل وغيرها من الأغراض، وقد نال الشعر الرّوحي الصّدارة بين جلّ الأغراض ونظم حوله الشعراء لاسيما في شعر التضرّع والابتهاال لله تعالى، حيث يتوسل الشاعر في نظمه للخالق يطلب عفوه ورحمته خاصّة إبّان الأسر أو الابتلاء، وها هو ذا الشاعر أبو الفضل بن التّحوي ينظم قصيدة في التضرّع يقول فيها:¹

لَيْسْتُ تُؤَبِّ الرِّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا فَقُمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ
وَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، يَا مُنْتَهَى أَمَلِي يَا مَنْ عَلَيْهِ بِكَشَفِ الضَّرِّ اعْتَمِدُ

وقد أبانت أبياته هذه عن تسليمه لأمر الله وركونه إليه زمن السّكون، شاكيا باكيا مقرّا بخضوعه ومعتزّا بقدرة الواحد الأحد في كشف الكرب، فضلا عن مقدّره في النّظم بأساليب بلاغية بعيدة عن التّكليف والتّعقيد.

كما أجاد شعراء بجاية في غرض الفخر كما تجري في ذلك عادة الشعراء قبلهم وبعدهم، وذلك لأنّ الشعراء ومنذ القدم ينظمون القصائد حول المفاخر والخصال ويتغنّون بالأجناد عن أنفسهم أو قومهم لاسيما إن كان الشاعر يملك القدرة على التعبير ويمتاز بفصاحة اللسان ورهافة الحس، حتى إنّ الفخر لازم طويلا المدح ومن هؤلاء الشعراء الذين نظموا في الفخر نورد ما جاء على لسان ابن فكون القسنطيني وهو يذكر مدينة بجاية في أبياته فيفتخر بها قائلا:²

دَعِ الْعِرَاقَ وَبَعْدَادَ وَشَامَهُمَا فَالْناصِريّةُ مَا إِنِ مِثْلُهَا بَلَدُ
بَرٌّ وَبَحْرٌ وَمَوْجٌ لِلْعُيُونِ بِهِ مَسَارِحُ بَانَ عَنْهَا الْهَمُّ وَالنَّكَدُ
حَيْثُ الْهَوَى وَالْهَوَاءُ الطَّلُقُ مُجْتَمِعٌ حَيْثُ الْغَى وَالْمُنَى وَالْعِيشَةُ الرَّغْدُ
وَالنَّهْرُ كَالصَّلِّ وَالْجَنَّاتُ مُشْرِفَةٌ وَالنَّهْرُ وَالْبَحْرُ كَالْمِرَاةِ وَهُوَ يَدُ
يَا طَالِباً وَصَفَّهَا إِنِ كُنْتَ ذَا نَصَفٍ قُلْ جَنَّةُ الْخُلْدِ فِيهَا الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ

فابن الفكون في أبياته هذه يفخر ببجاية ويشيد بها بين الحواضر وذلك بعدما أصبحت من أكبر العواصم الإسلامية المشعّة بالعلم والثّقافة، وتتوافد عليها أفواج العلماء والطلبة للتّهل من معين معارفها ويخصّها بوصف شامل يثير الفضول في القارئ للارتحال إليها، مستعملا ألفاظا وأساليب عذبة أفضت لمسة جمالية على المقطوعة.

أمّا بعض الشعراء فقد اختاروا غرض المدح، لاسيما وأنّه انعكاس لمشاعر الشاعر تجاه شخص أو أشخاص من مجتمعه، حيث يثني الشاعر على ممدوحه ويُشيع مناقبه التي ألفها فيه، وبالرّغم من أنّ بعض الشعراء قد اتّخذ المدح طريقا للتّكسّب ونيل المناصب

¹ - أحمد بن محمد أبو رزاق، الأدب في عصر دولة بني حماد، الشركة الوطنية للنشر والتّوزيع، الجزائر، دط، 1979م. ص(282، 283).

² - أبو العبّاس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، منشورات دار الآفاق، بيروت، ط2، 1979م، ص (334، 335).

فإنّ البعض الآخر وعن قناعة منه أعجب بالمدح ومناقبه ووثق به فنظم حوله، وقد نال الحكام والملوك العادلون نصيبا وافرا من المدح، وها هو الشاعر يوسف بن المبارك من أحد موالى بني حماد يمدحهم في أبياته فيقول:¹

هَنَّاكُمُ النَّصْرُ وَنَيْلُ النَّجَاحِ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا بِسَمْرِ الرِّمَاحِ
فَأَنْتُمْ الصَّيْدُ الْكَرَامُ الْأَلَى شَادُوا الْعُلَا بِالنَّائِلِ الْمُسْتَمَاحِ

فهذا الشاعر وبحكم ولائه لحكام الدولة الحمادية الذين اعتادوا على تقريب أهل العلم منهم من علماء وأدباء وشعراء ومشاركتهم رفقتهم في المجالس العلمية، والإغداق عليهم من وافر فضلهم وإقطاعهم المناصب الكبرى، فقد قابلهم الشعراء منهم بقصائد المدح والفخر على صنيعهم عبر قصائد رائعة.

ومن الأغراض المنتشرة أيضا وسط شعراء بجاية نجد غرض الشكوى؛ فمن خلاله يعبر الشاعر عن معاناته وانفعالاته وسط تقلب الدهر وما لحق به من متاعب، بأساليب وكلمات تنم عن حسرته واشتياقه للوطن والأهل، وبما أنّ الأندلس قد شهدت بعض الاضطرابات فقد نزع بعض سكاكها إلى حواضر المغرب الإسلامي ومنها بجاية وذلك شأن عزّ الدولة الواثق أبو محمد عبد الله بن المعتصم بن صمادح الذي أوّاه المنصور وأكرمه، فكتب هذا الأخير وهو من جملة الأدباء أبياتا تتضمن شكواه من تقلب الأحوال فيقول:²

لَكَ الْحَمْدُ بَعْدَ الْمُلْكِ أَصْبَحَ خَامِلًا بِأَرْضٍ اغْتَرَابَ لَا أَمْرٌ وَلَا أُخْلِي
وَقَدْ أَصْدَأَتْ فِيهَا الْهَوَادُ مُنْصُلِي كَمَا نَسِيتَ رَكْضَ الْجِيَادِ بِهَا رِجْلِي
وَلَا مَسْمَعِي يُصْغِي لِنَعْمَةِ شَاعِرٍ وَكَفِّي لَا تَمْتُدُّ يَوْمًا إِلَى بَذَلِ
طَرِيدًا شَرِيدًا لَا أُؤْمِلُ رَجْعَةً إِلَى مَوْطِنٍ بُوعِدْتُ عَنْهُ وَلَا أَهْلِ
وَقَدْ كُنْتُ مَتْبُوعًا فَأَمْسَيْتُ تَابِعًا لَدَى مَعْشَرٍ لَيْسُوا بِجَنْسِي وَلَا شَكْلِي

فابن صمادح نظم أبياته هذه ببجاية شاكيا فقدان أرضه وملكه بالأندلس بعدما كان حاكما يعجّ مجلسه بالأدباء والشعراء، وقد أضحى الآن كما يصف نفسه طريدا شريدا فاقدًا أمل الرجوع إلى الأيتام الخوالي، ولامتلاكه ناصية القول والموهبة الأدبية فقد أحسن اختيار الألفاظ التي تجعل القارئ يتعاطف معه ويتأثر بنظمه.

كما نال شعر الوصف نصيبا وافرا لدى الشعراء بحكم توظيفه في جلّ الأغراض تقريبا، نستعمله لوصف المدح وخصاله ونقحه في وصف معاناة الفقد وفي إشاعة المناقب، ونظرا لتوسّع عمران بجاية وتنوّع فنونها التي تمثلت في القصور الفاخرة والمباني الشائخة المختلفة انبرى الشعراء في وصفها ووصف جمال أركانها، فبرع في هذا الغرض الشاعر ابن حمديس الصقلي الشاعر الذي قصد ببجاية ووصف قصر المنصور الحمادي فيقول:³

اعْمُرْ بِقَصْرِ الْمَلِكِ نَادِيكَ الَّذِي أَضْحَى بِمَجْدِكَ بَيْتُهُ مَعْمُورًا

¹ - محمد الطّمّار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2006م، ص143.

² - ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1995م، ج2، ص201.

³ - محمد الطّمّار، تاريخ الأدب الجزائري، ص142.

فَصَرُّ لَوْ أَنَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بُنُورِهِ أَعْمَى لَعَادَ إِلَى الْمَقَامِ بَصِيرًا
وَاشْتَقَّ مِنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ نَسِيمُهُ فَيَكَادُ يُخْدِثُ لِلْعِظَامِ نُشُورًا
نُسَيِّ الصَّبِيحُ مَعَ الْمَلِيحِ بِذِكْرِهِ وَسَمَا فَقَاقَ خَوْزَنَقًا وَسَدِيرًا
وَلَوْ أَنَّ بِالْإِيَّانِ قُوبِلَ حُسْنُهُ مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكَورًا
وَمَضَتْ عَلَى الزُّومِ الدُّهُورُ وَمَا بَنَوْ لِمُلُوكِهِمْ شَبَهًا لَهُ وَنَظِيرًا

فقد عبّر الشاعر عن روعة هذا القصر ورونقه وانبرى يصفه ويقارن بينه وبين المباني المشهورة بالزوم والفرس وعن تفوّقه عليها، مخاطبا المنصور على هذا البناء حتى وصل به الزعم أنّ البصر سيُردّ للأعمى إذا نظر إلى إشراقة البناء وروعته، فيواصل وصف تلك البركة الموجودة بالقصر ذات الأشجار الذهبية والفضية وأسود المرمر التي تقذف المياه من أفواهها فيقول:¹

وَضَرَاغِمٍ سَكَنْتَ عَرِينَ رِيَاسَةٍ تَرَكْتُ خَرِيرَ الْمَاءِ فِيهِ زَبِيرًا
فَكَأَنَّمَا غَشَى النُّضَارُ جُسُومَهَا وَأَذَابٌ فِي أَفْوَاهِهَا الْبُلُورًا
أُسْدٌ كَأَنَّ سُكُونَهَا مُتَحَرِّكٌ فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرًا
وَتَذَكَّرْتُ فَتَكَاتَهَا فَكَأَنَّمَا أَقَعْتُ عَلَى أَذْبَارِهَا لِنُتُورًا
وَتَحَالُهَا وَالشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَهَا نَارًا وَأَلْسِنَهَا اللَّوَاخِسَ نُورًا

فابن حمديس يبين عن مهارته في الوصف مشبها خروج الماء من أفواه الأسود وكأنّه زئير، معرّجا إلى رسم هيئة وضعها ونحتها وكأَنَّها أجسام حقيقية ستتحرك، وكل هذا إنّما يدلّ على روعة الفنّ الحمادي ويؤكد على حذق هذا الشاعر في الوصف والتصوير بأسلوب رفيع ونغم موسيقي محبّب لأذن السامع.

أمّا غرض الرثاء فهو الآخر قد نال نصيبه في الشعر البجائي لاتّصاله بوجود الإنسان وعلاقاته مع غيره، وبحكم معاناته حال فقد الأهل والخلان ورثائهم، فهو أقرب إلى المدح المصحوب بمشاعر الجزع والتحسّر من الفراق، يسعى من خلاله الشاعر إلى ذكر مآثر الرّاحل لإفراغ شحنة الحزن لديه، فهذه العواطف التي تغمر الشاعر تجعل إحساسه يتفجّر على شكل شعر مزيج بين مدح الفقيّد والبكاء عليه، لهذا غدّ هذا الغرض من أصدق الفنون الشعرية، فمست قصائد الرثاء كبار العلماء والحكّام ومن لهم فضل كبير على الأمة أو أوطانهم التي مسّها الدمار نتيجة للحروب.

وبما أنّ الحياة الفكرية قد انتعشت ببجاية الحمادية وأفرزت روادا نفتخر بهم على مرّ العصور، فضلا عن ظهور عدّة صراعات على المدن والأقاليم في تلك الفترة فقد برز عدّة شعراء تناولوا هذا الغرض فتراوح بين رثاء الأشخاص والمدن، ومنهم الشاعر محمد بن حمّاد الصّنهاجي القلعي الذي نظم أبياتا يرثي فيها آثار الجدود بالقلعة الحمادية قائلا:²

أَيُّنَ الْعُرُوسَانِ لَا رَسْمٌ وَلَا طَلَلٌ فَأَنْظُرُ تَرَى لَيْسَ إِلَّا السَّهْلُ وَالْجَبَلُ
وَقَصْرٌ بِلَاةٍ أَوْدَى الزَّمَانَ بِهِ فَأَيُّنَ مَا شَادَ مِنْهُ السَّادَةُ الْأَوَّلُ

¹ - أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق إحسان عباس، نفع الطيّب من غصن الأندلس الرّطيب، دار صادر للنشر، بيروت، دط، 1988 ج1، ص493.

² - مبارك بن محمد المليي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي للنشر، بيروت لبنان، دط، دت، ج2، ص262.

وَلَيْسَ يُبْهَجُنِي شَيْءٌ أَسْرَّ بِهِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تُحَجَّتْ بِالْمَنْهَجِ السُّبُلُ
حَتَّى الْمُصَلَّى مُحْتِ آيَاتُهَا وَعَقَتْ إِلَّا جِدَاراً وَمَا طَلَّتْ بِهِ الطَّلَلُ
كَرَجْعِكَ الطَّرْفَ كَأَنْتَ كُلَّ آيَةٍ فَمَا تَرَاهُ كَذَلِكَ الْعُمُرُ وَالْأَجَلُ

فالشاعر بن حماد في أبياته هذه قام برثاء العاصمة الأولى للدولة الحمادية القلعة قبل أن تُنقل العاصمة إلى بجاية، معددا ما فيها من آثار الأجداد التي اندرست معالمها، موجّها رسالة إلى القارئ مفادها أنّه مهما طال العمر لابدّ أن ينقضي الأجل، تشوبه في ذلك عواطف حيّاشة يطبعها التسليم بأمر المولى عز وجلّ، وهو ما تعكسه تلك الأساليب والألفاظ المختارة بعناية تامّة حتى يتمّ إيصال المعنى المراد في أحسن حلّة.

أمّا عن الفنون الثّريّة فضمّت هي الأخرى مجموع ما أبدعه الكاتب من رسائل، وخطب، ومناظرات، ومقامات، وتوقيعات، ونصوص نقدية، حفظت المدونات التاريخية بعضها وضاع أغلبها، من ذلك نورد ما تمّ إبداعه من رسائل نثرية وفنية يكتبها الأديب بأسلوب رفيع بليغ لهدف معيّن، لذلك هي على أنواع عديدة يرمي كاتبها الوصول إلى مبتغاه فيكتبها حسب طبيعة الحاجة إليها.

وقد عرفت بجاية هذا النوع من الإبداع النثري من ذلك رسالة الكاتب الأديب أبي عبد الله محمد بن دفرير كاتب الدولة الحمادية إبان فترة حكم الخليفة يحيى بن العزيز الحمادي، وقد جاء فيها «كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسرّ، رضاً بالقسم وتسليماً للقدر وتعوياً على جزائه الذي يجزي به من شكر، ونصلّي على النبي محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بسحر، وبعد: فإنّه لما أراد الله أن يقع ما وقع، لقبح آثار من خان في دولتنا وضع استقرّ أهل مولاتنا الشنآن وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران... وبعثنا في أحياء هلال نستجد منهم أهل التّجدة»¹ فيحيى بن العزيز لما أدرك قرب زوال دولته أمر كاتب دولته بكتابة رسالة الاستعطاف هذه لأهل مولاته، يستجد فيها بهم ويطلب عونهم أمام جيش الموحّدين، وقد أتت المصادر على وصفها «فجاء أسلوبها رقيقاً بليغاً، عبّر فيه الكاتب عن خور الأمير أمام ما دهاه، وعن استعطافه أمراء العرب ليُنجدوه، وتأنّق في تنظيم الأفكار بألفاظ منتقاة، جميلة التّسيق، بيّنة الغرض، واضحة المعنى، خالية من التهويل والمبالغة محلاة بسجع قصير مقبول الصّنع»² وبالفعل فقد أجاد الكاتب فيها أيّما إجادة، ما أبان عن قدرته البالغة في الكتابة الأدبية وامتلاك ناصية البيان، وهو سبب اختيار الحكّام لكبار العلماء والأدباء لمثل هؤلاء ممّن يمتلكون المقدرة على إيصال المعنى وإقناع السّامع بفحوى الرّسائل.

ومن مجموع رسائل الحمّاديين أيضاً رسالة كتبها أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بابن القالمي ضمن رسائل العتاب والتهديد؛ جاء فيها: «...ولما كنت في مضمار سلفك جارياً، ولنا مواليا وفي قضاء طاعتنا متباهياً، رأينا أن نثبت مبانك ونؤكّد أواخيك

¹ - محمد بن صفي الدين العماد الأصفهاني، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب، الدّار التونسيّة للنشر، تونس، ط3، 1986م، ج1، ص 180.

² - أحمد بن محمد أبو رزّاق، الأدب في عصر دولة بني حمّاد، ص 182.

ونوجب لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك، تمييزاً لهم عن الأكفاء ومجازاة لهم عن محض الصفاء والولاء فاستدم هذه النعمة العظيم خطرهما بالشكر، فأنت به جدي [وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ] ¹ « فهذه الرسالة من أهم الإبداعات الثرية الحمادية أراد بها كاتبها إبلاغ المخاطب وإقناعه بما جاء فيها من أخبار تندرج ضمن تلك المعاملات الرسمية التي تربط الحكام بالرعية، وتضبط سلوكهم بألفاظ فصيحة مفهومة بعيدة عن التكلف محتومة باقتباس من القرآن الكريم لتعظيم المطلوب والتأكيد عليه.

كما عُدَّ الإبداع النقدي الأدبي فناً متميزاً من فنون النشر؛ فمن خلاله يمكننا وصف العمل الأدبي وبيان قيمته ثم إصدار الأحكام عليه، وبالرغم من أننا ألفنا ورود النقاد وسائر المؤلفات النقدية من المشرق نحو المغرب وتعودنا على الإفادة مما يوجد به هؤلاء من آراء والتأثر بها فإنه «لابد من الاعتراف بأنّ النقد المغربي قد استطاع أن يؤصل نفسه، ويؤسس لمدرسة نقدية كان لها الأثر في ما لحقها من نظريات نقدية متجددة فيما بعد» ² فقد قدم أدباء المغرب الأوسط إسهامات جليلة وقيمة في ميدان الدراسات النقدية للمصنّفات، أبرزهم الأديب الناقد عبد الكريم بن إبراهيم التّهشلي صاحب كتاب الممتع في علم الشعر وعمله، والأديب ابن رشيق المسيلي صاحب كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، فقد استطاع هذان الناقدان أن يؤصّلا للنقد الأدبي المغربي بالموازاة مع نظيره المشرقي، لتصبح مؤلفاتهما مرجعاً عاماً لأدباء بجاية والمغرب الإسلامي ككل يتدارسون مواضيعها ويستعينون بها في أعمالهم النقدية.

4. خاتمة:

وبعد عرضنا لهذا الموضوع المتمثل في إيراد أبرز تجليات الإبداع الفني والأدبي في حاضرة بجاية، لاسيما على عهد دولة بني حمّاد التي استطاع حكامها رفقة رعيّتهم من جعلها مركزاً حضارياً وثقافياً رائداً بين الحواضر الأخرى، بشتى أنواع النتاجات الفكرية والأدبية التي خلّدت أسماء كتابها في سماء العلم والأدب بأحرف من ذهب، فضلاً عن تلك الإبداعات المعمارية والفنية المتميزة التي شهدت لهم بالعبقريّة والسبق عن أقرانهم، فإننا توصلنا إلى مجموعة من النتائج هي كالآتي:

- ورثت الدولة الحمّادية بعاصمتها الجديدة بجاية ما جادت به العاصمة الأولى القلعة سياسياً وفكرياً وثقافياً؛ فأسهمت بشكل هام في تشكيل تاريخ المغرب الأوسط بل المغرب الإسلامي وحضارته بشكل عام.
- استطاعت بجاية بفضل ما احتوته من عمائر وفنون أن تتبادل التأثير والتأثير، وأن تحتفظ في الوقت ذاته ببعض الجوانب التي تمنحها الخصوصية والاستقلال عن مثيلاتها من الحواضر؛ وتتمكّن من أخذ مركز الريادة والصدارة في كثير من نواحي الإبداع الفني وبخاصة فنّ الهندسة المعمارية والزخرفية.

¹ - محمد بن صفى الدين العمامد الأصفهاني، تح محمد العروسي المطوي الجبلاني بن الحاج يحيى، محمد المرزوقي، خريدة القصر وجريدة العصر، ج1، ص 180.

² - محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي نشأته وتطوّره، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000م، ص 31.

- لقد اشتهرت بجاية في عدّة ميادين بأسلوبها وطابعها المميّزين خاصّة في الفنون والعمران، وبفضلهما أثّرت في دول المغرب وحتى أوروبا؛ فكان الأوروبيون تلامذة للحاضرة بجاية التي كانت بازدهارها هذا أقوى شاهد على رقي الحضارة الإسلامية المغروسة في الجزائر.
- برع علماء بجاية وأدباؤها في رقد الحركة الفكرية والأدبية بفضل ما جادت به قرائهم من نصوص شعرية ونثرية كشفت عن قمة مواهبهم الإبداعية المتنوعة وملكاتهم اللغوية، سواء بالافتداء بأساليب السابقين أو بما ابتكروه من نظم جديدة تشهد لهم بالسبق والتميز الأدبي، بل وعبروا بها عن تجاربهم المختلفة وطبعوها بلامح ثقافتهم الأصيلة.
- وقبل أن نسدل الستار عن هذا الموضوع لا بدّ أن نشير إلى أهمية مثل هذه المواضيع الغنيّة بمعلومات شتى عن المراكز العلمية المزدهرة بالمغرب الأوسط، كما نقترح أن يتم تعريف الأجيال اللاحقة بهذه الحواضر التي لا تزال شاهدا حيا عن مآثر علمائنا وأدبائنا وحكّامنا، وما خلّفوه من إبداعات فنية وأدبية رائقة، ما يجعلهم يفتخرون بها ويسعون للاستفادة من موروثاتها.

6. قائمة المراجع:

1. ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1995م، ج2.
2. أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، منشورات دار الآفاق، بيروت، ط2، 1979م.
3. أحمد بن محمد أبو رزاق، الأدب في عصر دولة بني حماد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1979م.
4. أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق إحسان عباس، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر للنشر، بيروت، دط، 1988، ج1.
5. إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1980م.
6. رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط2، 1981م.
7. رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، دط، 1977م.
8. رشيد بورويبة، بجاية (كتالوج) سلسلة الفن والثقافة، نشر وزارة الأخبار الجزائرية، مدريد، 1970م.
9. سليمان داود بن يوسف، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر، دط، 1993م.
10. صالح أحمد الشامي، الفن الإسلامي التزام وابتداع، دار القلم للنشر، دمشق، ط1، 1990م.
11. عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991م.
12. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1980م، ج1.
13. عبد الرحمن بن خلدون، ضبط خليل شحاتة، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 2006م، ج6.
14. عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، شركة دار الأمة للنشر، الجزائر، دط، 2013م.
15. لسان الدين بن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، دار الكتاب للنشر، الدار البيضاء، دط، 1964م.
16. مبارك بن محمد الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي للنشر، بيروت لبنان، دط، دت، ج2.
17. محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2006م.
18. محمد بن صفى الدين العماد الأصفهاني، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب، الدار التونسية للنشر، تونس، ط3، 1986م، ج1.
19. محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي نشأته وتطوره، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000م.